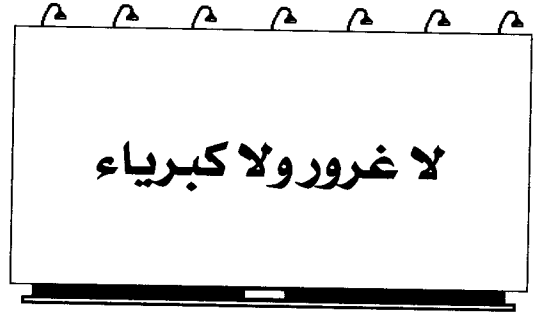
لا غرور ولا كبرياء

لا غرور ولا كبرياء

القلوب المطمئنة بالإيمان، المتعلِّقة بالرحمن، لا يمكن أن تحمل وزن ذرَّة من غرور أو كبر، ولا يمكن أن تُكِنَّ في شراييها شعوراً بالتعالي على أحدٍ من الناس أبداً؛ لأن الإيمان بالله سبحانه وتعالى والكبر لا يجتمعان في قلب مؤمن، ولا يجري بهما كلامٌ على لسانه الرَّطْب بذكر الله سبحانه وتعالى.

وصاحبة الحرير الأخضر بعيدةٌ كلَّ البعد عن أي غرورٍ أو كبرياء أو احتقارٍ لأحد، لأنها - إلى جانب إيمانها بربها - تلميذة محمد بن عبدالله عيه الصلاة والسلام الذي كان يجالس الفقراء والمساكين كما يجالس الأغنياء وعلْيةَ القوم، بل إنه كان إلى مجالسة الفقراء والمساكين أمْيَلَ وَأقرب، وكان يقدِّم أهل الخير والفضل وإن كانوا من أفقر الناس حالاً، وأقلهم بين الناس مكانةَ.

إنَّ عائشة جديرةٌ - في المقاييس البشرية - بالفخر والاعتزاز على غيرها من النساء، والرجال أيضاً، لقربها المعروف من سيِّد الخلق صلى الله عليه وسلَّم، ولكنَّها من أبعد الناس عن ذلك بسبب ما ذكرنا من ورعها ودينها وتربيتها المتميزة في بيت النبوَّة، وملازمتها الفريدة لسيد الخلق عليه الصلاة والسلام حتى مات بين

سحرها ونحرها، وحتى لامس ريقه ريقها من خلال السواك الذي استاكت به وأعطته الرسول ﷺ فتسنَّن به قبل وفاته.

إنَّ هذه المدرسة النبوية المحمديَّة هي التي ربَّت العالم كلَّه على الأخلاق الفاضلة والإحسان والتواضع، فكيف لا يظهر أثر تربيتها العظيمة في أقرب الناس إلى صاحب المدرسة رسول ربِّ العالمين عليه الصلاة والسلام؟

يروي أبو بكر السجستاني صاحب كتاب مسند عائشة رضي الله عنها[1] عن صاحبة الحرير الأخضر أنها قالت لعبدالله بن الزبير - ابن اختها -: إذا أنا مُتّ فادفنّي موضع أخي بالبقيع، قالت: وكان في بيتها موضع قبرٍ، فقالت: لا أُزكَّى به أبداً.

وقد أخرج ابن سعدٍ في كتاب الطبقات عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عند وفاتها: إني قد أحدثْتُ بعد رسول الله ﷺ، فادفنوني مع أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، وأورد ذلك الذهبي في سير النُّبلاء[2] وعلَّق عليه بقوله: تعني عائشة بقولها أحدثْتُ: مسيرَها يوم الجمل، فإنها ندمت على ذلك ندامةً كُلِّية، وتابت من ذلك: على أنها ما فعلت ذلك إلا متأوِّلةً قاصدةً للخير.

---

(١) ص: ٩٠.

(٢) جـ٢ ص: ١٩٣.

أرأيتم - أيُّها الأحبة - كيف تكون النفوس الكبيرة والقلوب العامرة بالإيمان، فقد كان في حجرتها موضع قبر، وقد كان المنتظر منها أن توصي بدفنها فيه مجاورة لقبر حبيبها، وحبيبنا عليه الصلاة والسلام، ولكنها أوصت بغير ذلك معترفةً بأن خروجها (يوم الجمل) يؤخِّرها في نظرها عن الفوز بأنْ يكون قبرها بجوار قبر أفضل الخلق، وحريصةً من جانب آخر على ألاَّ تزكِّي نفسها، ويزكِّيها الناس بذلك، فهي تقولها صريحة واضحةً: «لا أُزكَّى به أبداً».

هنا تواضع شامخ، وشموخ متواضع، هنا مدرسةٌ محمدَّية، أخرجت لنا هذا الشموخَ العائشيَّ الجميل.

في الحديث الآخر الذي مرَّ معنا: كان رسول الله ﷺ يصلِّي صلاته من الليل وأنا معترضة بينه وبين القبلة، وأنا مضطجعة على فراشه الذي يرقد عليه هو وأهله.

يا له من رُقيٍّ في العبارة يُمتعنا ويرقى بأذواقنا. تأملوا معي - أيها الأحبة - قولها: «وأنا مضطجعة على فراشه الذي يرقد عليه هو وأهلُه» إنه فراشه عليه الصلاة والسلام، وهو فراشها، فكان بإمكانها أن تقول «فراشي» ثم قالت: «هو وأهله»، وكان بإمكانها أن تقول: هو وأنا».

إنه البيان العائشيّ البديع، أدبٌ جَمٌّ، وذوق رفيع، وبعدٌ عن الغرور والكبرياء، «هو وأهلُه» جملةٌ تستحق أن تكتب بماء الذهب لما تحمله من الإيحاءات الجميلة التي يعرفها أهل العلم ببدائع لغة القرآن، التي تتقنها صاحبة الحرير الأخضر كلَّ الإتقان.

ما أبعدَ الغرورَ والكبرياء عن ذات الفضل على النساء!!